

من الخيماء إلى الكيمياء .. مسار علم (6) : الخيماء الإسلامية

في خضم حديثنا عن تاريخ ونشأة علم الكيمياء، تطرقنا في مقالاتنا السابقة إلى أهم الحضارات التي ساهمت في ظهور هذا العلم، حيث جاءت الخيماء إلى الوجود في الغرب وذلك في العصر الهلينستي، ولم تظهر كتابات الخيمائيين الهلينستيين أنفسهم إلا في العديد من بقايا المخطوطات التي يحمل معظمها أسماء شخصيات أسطورية أو شهيرة مثل هرميس و إيزيس و كليوباترا، و يحتمل أن تكون أقدم هذه الكتابات باسم ديموقراطيس، اد يؤرخ لها بالسنوات الأولى من القرن الأول بعد الميلاد. و يعتبر زوسيموس الناپولي شخصية مهمة، حيث ألف عام 300 ميلادية تقريراً موسوعة الخيماء التي تقع في 28 جزء أهدأها إلى أخته ثيوسيبيا.



ترجم عدد كبير من الكتابات الإغريقية إلى اللغة العربية، و يتضح في العديد من المراجع الموجودة لأعمال الخيمائيين أن المسلمين كانوا على دراية بالأعمال الإغريقية، و بالتالي اعتبارها عاملاً مؤثراً في الخيماء الإسلامية دون الجزم أن الإغريق هم المصدر الوحيد لها. فقد كانت الخيماء البدائية الهليستية تعدينية أساساً، بينما اقترنت الخيماء الإسلامية بنظيرتها الصينية في الطبيعة الطبية لصنعتها واستغرافاتها. وقد ظهرت أفكار إطالة العمر في كتابات جابر بن حيان و في أعمال خيمائيين آخرين، و أغلب الظن أنهم أُسْتَوْرُدوْهَا من الصين، حيث أنها السمة المميزة للخيماء الصينية منذ قرون قبل الميلاد. رغم أنه لم تعرف أعمال صينية مترجمة في القرون المبكرة للإسلام، إلا أن العلاقات التجارية بين الحضارتين قد تكون المساعدة في تبادل المعلومات والإرساليات بين الجانبيين، على غرار ما عُرف في مجالات أخرى كصناعة الورق وأساليب ضرب الحصار.

و مع أحتمال وجود علماء قدامى نشطوا في هذا المجال، فإن أهم اسم في الخيماء الإسلامية كان "جابر بن حيان" المعروف في الغرب باسم "جبر Geber" و الذي طرح أفكاراً تميزت عن تلك التي طرحتها أسلافه الهلينستيين. وأولى هذه الأفكار نظرية الزئبق و الكبريت، حيث يعتقد أن الزئبق به من عناصر الماء و التراب، بينما يحتوي الكبريت على النار و الهواء، و لهذا تحتوي المادتان على العناصر الأربع. و عندما يُخلط الزئبق بالكبريت، و يدخلان في مركب متماسك، فإن الحرارة تولد عملية الإنضاج و الطبخ التي تؤدي إلى أنواع من الفلزات المختلفة. إذا كان الزئبق نظيفاً و الكبريت نقياً، و إذا كانت الكميّتان بنسبة العلاقة المثلية بينهما، و إذا كانت الحرارة بالدرجة المناسبة، ينتج الذهب الخالص. بينما إذا دخلت البرودة قبل الإنضاج تنتج الفضة، وإذا دخل الجفاف ينتج النحاس الأحمر. و بقدر ما تتدخل عوامل مفسدة أكثر، تقل جودة الفلزات الناتجة.

و مع أن النظرية المذكورة أعلاه ظهرت لأول مرة في الأعمال الجابرية، إلا أنها تختلف في جوهرها مع تلك النظريات التي سبقت الإشارة إليها في مقالاتنا السابقة، غير أن هذا لا ينفي طرحة لنظريات لا تمثل انحرافاً

جديراً عما طُرِح في العصور القديمة. فقد كانت "نظريَّة الميزان" ذات طبيعة تأمليَّة عالية، و فيها حاول الخيميائي تحديد أوزان الطبائع الأربع في أي مادة، و استخدام نظام الإعداد السحري (العدادة Numerology) المعقد بالاتحاد مع الأبجدية العربيَّة المؤلفة من 28 حرفاً لتقدير نسبة الطبائع في المادة. فقد كان يتم تحديد قيمة الميزان بتخصيص قيمة عدديَّة لكل من الأبجدية و مطابقة هذه القيم بحروف اسم المادة، و من ثم يمكن حساب نسبة الطبائع الأربع في هذه المادة. و بمعرفة هذه النسب طبقاً للنظرية فإنه يمكن ضبطها للحصول على مواد أخرى.

كما أن فكرة الإكسير الذي تمنَّ استخدامه كعلاج أو كقوة مانحة للحياة، كما تمت الإشارة إلى ذلك في مقالنا السابق، ظهرت لأول مرة في كتابات جابر بن حيان. هاته المادة التي يمكن تحضيرها من مواد حيوانية أو نباتية أو معدنية، ويمكن استخدامها لإطالة الحياة أو تعاطيَّها كعلاج للمرضى اليائسين من الشفاء.

الاسم العظيم الآخر في الخيمياء الإسلاميَّة هو "أبو بكر محمد بن زكرياء الرازِي"، وهو مشهور بكونه طبيب و معلم و صاحب مهنة، لكنه أولى اهتمامه أيضاً بالفلسفة و المنطق و الميتافيزيقاً و الشعر و الموسيقى و الخيمياء، حيث صنف عدداً من الكتب الخيميائية بعضها لا يزال موجوداً، و تشمل كتابه المهم في هذا الموضوع و الذي يعنوان "كتاب الأسرار". فمن خلال كتاباته، كان الانطباع الغالب أنَّ الرجل له مقدرة عقلية فائقَة، أهتمَّت بالخيمياء العملية أكثر بكثير من النظرية منها. فهو لم يقبل نظرية الميزان التي طرحتها جابر، و لم يناقش إكسير الحياة، و لم ينشغل بالتأمل في المعنى الخفي للخيمياء. و أعتقد، مع الكتاب الهلينستيين، بأنَّ جميع المواد تتَّألف من العناصر الأربع، و لهذا يمكن تحول الفلزات، حيث هدف الخيمياء هو إحداث هذه التحوُّلات بواسطة الإكسيرات، أو تحسين الأحجار العديمة القيمة مثل الزجاج بواسطة أكاسير مناسبة و تحويلها إلى أحجار كريمة. و قد وافق "الرازي" سلفه جابر بن حيان في القول أنَّ مكونات المعادن هي الزئبق و الكبريت، إلا أنه أقترح إضافة مكون ثالث دُي طبيعة ملحية.

و على الرغم من مواصلة تأليف الكتب التي تهتم بالخيمياء في العصر الإسلامي حتى القرن الخامس عشر ميلادي فصاعداً، إلا أنه لم تضف إلى أعمال جابر و الراري مؤلفات كثيرة ذات أهمية في الجانبين الخفي و العملي للموضوع. وقد كان أحد الكتب الأكثر أهمية هو ذلك الكتاب الذي صنفه في إسبانيا أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، مؤلف يدعى أبو القاسم مسلمة بن أحمد القرطبي (950-1008)، و الذي لقب بـ "المجريطي" لكونه عاش فترة طويلة في مدربه، و نسب إليه عملين مهمين في الكيمياء هما "رتبة الحكيم" و "غاية الحكيم"، هذا الأخير الذي تمت ترجمته إلى اللغة الإسبانية سنة 1256 م بأمر من الملك ألفونس، ثم تُرجم بعدها إلى اللاتينية.

إذن، كان للمسلمين أيضاً دوراً مهماً في تطور هذا العلم من خلال أفكارهم و أعمالهم و نتائج تجاربهم، ذكرنا هنا عينة من كبار الشخصيات التي ساهمت في هذا المجال و في مجالات أخرى، إلا أنه و بلا شك هناك أسماء أخرى كان لها نصيب في تطور هذا العلم و علوم أخرى، و التي لن تخفي على الباحث المهتم بهذا الموضوع.

و بهذا، تكون قد أنزلنا الستار على رحلتنا عبر التاريخ، من العصور القديمة حيث عاش الإنسان البدائي، مروراً بحضارات ما قبل الميلاد إلى ما بعده، تطرقنا من خلالها لكيفية ظهور و نشأة علم الخيمياء، من هم المساهمين في ذلك؟ النظريات و الأفكار التي بُنيت عليها أعمالهم؟ إلى أن تطرقنا للحديث عما ساهم به

المسلمون في تطور هذا العلم؟

نتمى أن تحمل مساحتنا هذه أجوبة لأسئلة كثيرة تحوم حول أصول الخيماء، فحربي بالذكر أن التطرق للموضوع هو فقط مدعوة للبحث و التعمق في كل المعلومات التي قدمناها لمتابعينا الكرام، حيث حاولنا الالتزام بالدقة و الموضوعية في الاعتماد على المراجع و نقل المعلومات. و إلى تاريخ علم جديد، لكم منا أطيب المنى.

إعداد: محمد ماخا/تدقيق لغوي: مريم السهلاوي